المبحث الحادى عشر

تلوث القلوب والجوارح

تلوث القلوب والجوارح

قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

أي: أعبادة ما تشركون بربكم خير، أم الذي جعل لكم الأرض مستقرًّا وجعل وسطها أنهارًا، وجعل لها الجبال ثوابت، وجعل بين البحرين العذب والملح حاجزًا حتى لا يُفسد أحدهما الآخر؟ أمعبود مع الله فَعَلَ ذلك حتى تشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْر عظمة الله، فهم يشركون به تقليدًا وظلمًا. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: أغير الله إلهي وإلهكم أطلب حَكَمًا بيني وبينكم، وهو سبحانه الذي أنزل إليكم القرآن مبينًا فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم؟ وبنو إسرائيل الذين آتاهم الله التوراة والإنجيل يعلمون علمًا يقينًا أن هذا القرآن منزل عليك أيها الرسول من ربك بالحق، فلا تكونن من الشاكِّين في شيء مما أوحينا إليك.

لابد وأن نقول أن الأمر، والحكم، والمشيئة كلها له جل في عُلاه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

أي: وما تريدون أمرًا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته، إن الله كان عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه.

هل عشت مرحلة المعرفة بما خلق الله وأبدع؟ المعرفة بمن أنزل الكتاب، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]. إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري، هو الذي نزَّل عليَّ القرآن بالحق،

وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم.

وانظر سلمك الله إلى زادك الحقيقي في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فمن أوجب الحج على نفسه فيهن بالإحرام، فيحرم عليه الجماع، ومقدماته القولية والفعلية، ويحرم عليه الخروج عن طاعة الله تعالى بفعل المعاصي، والجدال في الحج الذي يؤدي إلى الغضب، والكراهية.

وما تفعلوا من خير يعلمه الله؛ فيجازي كلاًّ على عمله، وخذوا لأنفسكم زادًا من الطعام والشراب لسفر الحج، وزادًا من صالح الأعمال للدار الآخرة، فإن خير الزاد تقوى الله، وخافوني يا أصحاب العقول السليمة .

اللهم نورنا وإياكم بنور الصلاة، فالصلاة نور كما أخبر النبي ﷺ، «**الصلاة نور**»[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤].

أي: وارجعوا إلى ربكم أيها الناس بالطاعة والتوبة، واخضعوا له من قبل أن يقع بكم عقابه، ثم لا ينصركم أحد من دون الله.

فرحلة التفويض والإنابة لله تعالى، فمن أين يأتي التلوث؟ فالإنسان لكي يبقى نقيًّا، لابد وأن يكون في صحبة طيبة، فالله تعالى جعل كلَّ نبيٍّ يتمنى أن يحشر مع الصالحين الذين أصلح الله تعالى قلوبهم، فأصبحت قلوبهم بعيدة عن أي تلوث، فسيدنا يوسف عليه السلام كان عظيمًا في الفرار من المعاصي، وأيقن أنه لن يغيث لهفته وينقذه إلا الله تعالى؛ فاستجاب له ربه

(١) صحيح مسلم، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، رقم الحديث: ٣٢٨.

هذا، عندما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف:٣٤].

أي: فاستجاب الله ليوسف عليه السلام دعاءه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأة العزيز والنسوة معها من معصية الله، إن الله هو السميع لدعاء يوسف عليه السلام ودعاء كل داع مِن خلقه، العليم بمطلبه وحاجته وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم.

أي: فصرف عنه كيدهن فصار نقيًّا طاهرًا مطهرًا في نهاية رحلة سيدنا يوسف عليه السلام، وأجمل ما يكون أن تكون رحلته في طاعة الله ﷻ، إذا ضاقت الدنيا في وجهك؛ فهذه رخصة لك، إذا فتح لك خير فليس لك وحدك، فالله ﷻ أعطاه لك؛ لتعطيه لمستحقيه، وإن الإنسان لا ينسب الفضل لنفسه لأنه ضعيف، ولابد من الاستعانة بقوة الله تعالى، والله خير معين، وهو أرحم الراحمين .

فكلٌّ من عند الله ربي، قد آتيتنى من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

أي: ثم دعا يوسف عليه السلام ربه قائلًا: ربِّ قد أعطيتني من ملك "مصر"، وعلَّمتني من تفسير الرؤيا، وغير ذلك من العلم، يا خالق السماوات والأرض ومبدعهما، أنت متولي جميع شأني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، وألحقني بعبادك الصالحين من الأنبياء الأبرار، والأصفياء الأخيار .

الاستغاثة والاعتراف، أي لولا عطاؤك لي ما كنت وصلت لهذا، أي ارجع الفضل دائمًا للملك رب العالمين .

ماذا تريد يا يوسف عليك السلام؟ ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

متى يلحق بهؤلاء الأنقياء، وأن يموت على ملة الإيمان والإسلام أي التوحيد؟

وكذلك قال موسى عليه السلام لقومه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أي: قال موسى لقومه من بني إسرائيل: استعينوا بالله على فرعون وقومه، واصبروا على ما نالكم من فرعون من المكاره في أنفسكم وأبنائكم.

إن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله ففعل أوامره واجتنب نواهيه.

إن الأمور تجري بمقادير، فالذي يفكر يخيل إليه أن هذا ضعف في التفكير، المعرفة الإيمانية تعلمها النبي العظيم ﷺ على مدى عشرين سنة، والاستعانة بالله تعالى تجعل الإنسان مستريحًا.

سيدنا موسى عليه السلام لم يطلب مالًا، ولم يطلب من قومه أن يتحملوا فوق طاقتهم، ولكنه طلب منهم الاستعانة بالله جل في عُلاه والصبر، فردوا ردًّا عجيبًا، وفيه سوء أدب مع الله ﷻ، ومع سيدنا موسى عليه السلام ومن هنا يأتي التلوث في عدم الصبر، حيث قالوا في الآية التي لحقتها في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٩].

أي: قال قوم موسى من بني إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام: أبتُلينا وأُوذينا بذبح أبنائنا، واستحياء نسائنا على يد فرعون وقومه، من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا، قال موسى عليه السلام لهم: لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه، ويستخلفكم في أرضهم بعد هلاكهم، فينظر كيف تعملون، هل تشكرون أو تكفرون؟

أي: أنت يا موسى - عليك السلام - ما فعلت شيئًا، ما الذى أخرج آدم، وحواء من الجنة؟ الجنة الواسعة تناولْ منها ما تشاء، ولكن هناك محظورًا، هذه الشجرة، انطلق، وكُلْ وخُذْ ما تشاء لكن هذه الشجرة محظورة عليك، فظل الشيطان يوسوس لهما فبدت لهما سوءاتهما، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١].

أي: فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورةً عن أعينهما، فأخذا ينزعان من ورق أشجار الجنة ويلصقانه عليهما؛ ليسترا ما انكشف من عوراتهما، وخالف آدم أمر ربه، فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ....﴾ [طه:١٢١].

أي، يقطع في أوراق الجنة، والتقطيع نفسه فساد، أي: أصبحوا يفسدون بها، ما الذي جاء لك بهذه السوءة؟ "أكلة" أو "لقمة" سيدنا آدم عليه السلام أُخرج من الجنة بلقمة، وإبليس خرج من رحمة الله ﷻ بترك سجدة، وأصبح ملعونًا عندما خالف أمر الله ﷻ فهوى، اهبط، اهبط، هكذا تلوث المعاصي أصحابها.. اللهم ارزقنا الرضا والقناعة، فالوصول للرضا يحتاج إلى مجاهدة وقناعة .

فسيدنا موسى عليه السلام قال لهم: كما في قوله تعالى كما ذكرنا من قبل: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٩]

أي: أن الدنيا التي تريدونها من النفوذ، السلطان، الزهد، العفة، وكل هذا سيأتي لكم، وبعدما يأتي هذا، نشاهد ماذا تفعلون؟ فسيدنا موسى عليه السلام كان عنده يقين أن هذا يحدث، وأنهم دائمًا معترضون، ويناقشون بطريقة غير لائقة، فالله ﷻ أكرمهم من أجل سيدنا موسى عليه السلام، والله يرفع العباد والبلاء

بشخص صالح فقط، فما بالك بنبي؟! فسيدنا موسى عليه السلام أكرمه الله جل جلاله فاستجاب الله له، فقال الملك بعد هذا استجابة لدعائك يا موسى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أي: وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستَذَلُّون للخدمة، مشارق الأرض ومغاربها، وهي بلاد "مصر والشام" التي باركنا فيها، بإخراج الزروع والثمار والأنهار، وتمت كلمة ربك أيها الرسول بالحسنى على بني إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض؛ بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه، ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور وغير ذلك.

أي: عندما سمعوا كلام سيدنا موسى عليه السلام فاعترضوا، ثم صبروا فأعطاهم الله الاستجابة الحقيقية، كما جاء في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان:٣٦].

فقلنا لهما - أى لموسى وهارون: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذَّبوا بدلائل ربوبيتنا وألوهيتنا، فدَعَواهم إلى الإيمان بالله وطاعته، وعدم الإشراك به، فذهبا إليهم، فكذَّبوهما، فأهلكناهم إهلاكًا عظيمًا.

ودمرناهم تدميرًا، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل، ونصركم على فرعون نصرًا كبيرًا وشديدًا، ولكن هناك مفاجأة صعبة لماذا؟ لأنهم حريصون على التلوث وعدم النقاء، ويعيشون فى أجواء غير نقية، هناك ما دل على أن قلوبهم غير نقية ولم تطهر ماذا حدث؟ فجاء في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

أي: وقطعنا ببني إسرائيل البحر، فمرُّوا على قوم يقيمون على عبادة أصنام لهم، قال بنو إسرائيل: اجعل لنا يا موسى صنمًا نعبده ونتخذه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها، قال موسى عليه السلام لهم: إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله، ولا تعلمون أن العبادة لا تنبغي إلا لله الواحد القهار، وهم عائدون إلى مصر مرة أخرى ماذا حدث؟ أتوا على قوم كفار يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦].

أي: إن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده، ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكًا من خلقه، فقد بَعُدَ عن الحق بعدًا كبيرًا.

إن المسلم العربي الذي يقرأ القرآن، ثم يرتد عن الإسلام هذه مصيبة كبيرة، وهذا ما حدث مع بني إسرائيل، فالمرتد من الإسلام ليس حرًّا، كان حرًّا فى حالة واحدة وهو خارج الإسلام، لا إكراه للناس فى العبادة والشعائر، وإنما النصح والإرشاد، أما المرتد ليس حرًّا، هذه أحكام قالها الملك ولا معقب لحكم الملك: ﴿... ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨].

حتى هذه اللحظة أنتم غير مدركين الحقيقة، التوحيد والإيمان، من نصركم؟ ومن أيديكم ونصركم على فرعون؟ وبعد هذا اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، أتقارن بين الله المعطي، الباقي، السميع، الحكم، العدل، الصبور، العفو، الحليم، وبين صنم لا ينفع نفسه ولا غيره؟ سيدنا موسى عليه السلام يرد عليهم بأنه فضلكم على العالمين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾ [الأعراف: ١٣٩، ١٤٠].

أي: إن هؤلاء المقيمين على هذه الأصنام مُهْلَك ما هم فيه من الشرك، ومدمَّر وباطل ما كانوا يعملون من عبادتهم لتلك الأصنام، التي لا تدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم.

قال موسى لقومه: أغير الله أطلب لكم معبودًا تعبدونه من دونه، والله هو الذي خلقكم، وفضَّلكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء فيكم، وإهلاك عدوكم، وما خصَّكم به من الآيات ؟

اللهم اغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، واجبر كسرنا، وارحم ضعفنا، وتولَ أمرنا، واشرح صدورنا، ونور قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، وأحسن عاقبتنا، وأحسن خاتمتنا.

واختم لنا بالباقيات الصالحات أعمالنا .

اللهم إنا نسألك بحقك العظيم، وبحق نور وجهك الكريم وبحق عرشك العظيم، وبما حمل كرسيك من عظمتك وجلالك، وجمالك وبهائك، وقدرتك وسلطانك، أن تصلي على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

****